٥ ـ مولود المامرى

من أدباء الطليعة فى الجزائر ، جمع بين الموهبة الأدبية والنضال الفكرى الواعى ، وهو واحد من الفئة الممتازة التى أسهمت فى بلورة الثورة ونقلها من نطاق السخط الفردى والشكوى المبهمة والحيرة المضللة إلى ميدان الثورة الجماعية المنظمة والنضال الشعبى المركز ، كما عملت على إقامة الحدود الفاصلة بين القومية الفرنسية التى تحاول تمثل الشعب الجزائرى وبين القومية الجزائرية ذات الخصائص والمقومات الروحية والمادية .

إن الكتاب الجزائريين يختلفون فى طريقة إظهار معالم القومية الجزائرية والمناداة بوجودها ، ففى الوقت الذى نجد بعضهم يسلك طريق الإيحاء والتورية والتلميح الخفى والأسلوب الفنى نجد آخرين ومنهم مولود المامرى يتجهون نحو الصراحة ، منزلين قضية « الشخصية الجزائرية » والواقع القومى منزلة العقيدة والموضوع الأساسى فى أدبهم آثارهم . ولا أدل على ذلك من جملة يقولها دوماً أحد أبطال رواية مولود المامرى كلما سئل

عن سبب تصرفاته الغريبة : « أنا جزائرى ! » وقد سبق مولود المامرى فى عمله الأدبى إلى التعرض لقضايا كثيرة لها علاقة بحياة بلاده وكفاحها الاستقلالى ، منها قضية الاستعمار ، فهو يرى أن الاستعمار ليس نظاماً سياسيا واقتصاديا مبنيا على السطو والعدوان واللصوصية فحسب ، بل هو نظام يستمد فاعليته من نظرة رجعية تحتقر البشر ، وفلسفة لا تؤمن بالقيم الخلقية والمكتسبات الحضارية التى جاهدت الإنسانية عصوراً من أجل تشييدها والحفاظ عليها . فى رواية نوم الرجال العادل يورد مولود المامرى جملة على لسان أحد سكان القرية التى بطش بها الحاكم المستعمر الظالم ، وهذه الجملة بعيدة الدلالة على عقلية المستعمرين : « أعتقد أنك تحتقر الناس إلى حد بعيد ما دمت ترضى أن تحكمهم على هذه الشاكلة ! »

وتتصف أفكار مولود المامرى بالنزعة التقدمية الثورية ، والوعى القومى الذى يقدس نضال الشعوب وتعتبره أساساً للتحرر من العبودية ، ولذا تراه يعتقد أن روح الجزائر النضالية لم تخمد على مر السنين ، بل تخللها فترات خمود ، خمود النار تحت الرماد ، فالنضال القومى ضد الاحتلال لم ينقطع منذ عبد القادر إلى معارك جيش التحرير ، وهو ينادى بأن الثقافة الفرنسية

إنما هى ستار يخفى وراءه المستعمرون غاياتهم ، وتسويغ للاستعمار نفسه ؛ وإذا عرفنا أن الشعوب المغلوبة كشعب الجزائر لم تنل من هذه الثقافة إلا النذر اليسير نظراً للعوائق التى أقيمت فى طريق نشر العلم والمعرفة بينهم وحصرها فى فئة ضئيلة ، أمكننا إدراك مقدار التضليل والتمويه الذى يغلف قضية الثقافة ويبعدها عن الأغراض النبيلة التى يجب أن تهدف إليها الثقافة الإنسانية الواسعة التى يجب أن تغدق على الشعوب دون حساب أو غاية أو غرض بعيد أو قريب سوى ترقية الإنسان وإعلاء شأن العقل والروح.

ولد مولود المامرى فى ٢٨ ديسمبر ١٩١٧ فى قرية تاويرت ميمون فى جبال البربر العليا ، وكان يعلم إلى جانب لغته البربرية بالفرنسية عندما غادر مسقط رأسه للالتحاق بمدرسة الرباط الثانوية ، ثم انتسب بعدها إلى ثانويات الجزائروباريز ، واشترك مع الجيش الإفرنسى فى معارك فرنسا وألمانيا وإيطاليا ؛ ثم ترك الجيش ودرس الأدب فى مدرسة « بن عكنون » فى الجزائر ، وهو يقيم اليوم فى الرباط بعد أن طاردته السلطة الاستعمارية . وقد حدد مولود المامرى موقفه من ثورة الجزائر فى كتاب أرسله إلى صديق سنة ١٩٥٦ جاء فيه : « تطالعنا

كل يوم قائمة جديدة من القتلى . وموجة جديدة من الحماسة ، إنك تحدثنى عن الأدب . . . كلا لم أعد أكتب منذ سنة كاملة ، لأننى أعتقد أنه لم يعد هناك شىء جدير بالكتابة اللهم إلا المأساة الكبرى ودماء الأبرياء جميع الأبرياء الذين يدفعون ثمن جريمة المجرم الوحيد وهو الاستعمار . . .

والأمل العنيد ، ذلك الذى سوف ينبع من آلام الولادة ، وآمل أن ينبع عن قريب ذلك الشىء الجديد الذى لا محالة سوف ينبع من أرضنا . . إنك تعلم أننى لا أدين الرجال بل النظام ذاته . . . إن الرجال أصيبوا بالعقم لأن المشاعر التى تلازم النظام الاستعمارى لا تبعث الحماسة بل تقف كلها فى المستوى الأسفل والأكثر سلبية والأخطر والأبشع . إن الرجال الذين يزدهرون فى ظل الاستعمار هم المنافقون وتجار السوق السوداء والخونة والنواب المعينون والبلهاء فى القرى والمنحطون والطامعون على غير أساس والمخبرون والقوادون وأصحاب القلوب السوداء ، ليس هناك فى ظل الاستعمار قديس ولا بطل حتى ولا الكفاءة التى لا يقدرها الاستعمار ، فالاستعمار لا يرفع أحداً بل ينشر اليأس والجدب ، وهو لا يجمع بل يفرق ويعزل ، الاستعمار يدفن كل إنسان فى عزلة ليس فيها أمل . » .

وقد ألف مولود المامرى روايتين الأولى « التل المتسى » والثانية « نوم الرجل العادل » وتعتبر الأولى من أقوى ما أنتجه كتاب الجزائر ذوو التعبير باللغة الفرنسية ، فهى تترك أثراً وانطباعاً شديدين فى القارئ بما تحويه من صور قوية عن قبائل البربر والوسط الذى تعيش فيه ، وتجرى حوادث الرواية فى إحدى قراها الجبلية « تاسكا » ، فقد كان يعيش فى هذه القرية قبل الحرب الأخيرة جماعة من الجزائريين عيشة عزلة وانقطاع عن العالم الخارجى ، يسودها الملل والبطالة والتناحر العاطفى الشديد ، حتى إذا جاءت الحرب كشفتهم لأنفسهم وفرقتهم أيدى سبأ ، وتبدو من خلال الإطار الروائى العاطفى مظاهر هذا المجتمع البربرى القبيلى المعذب الذى حرم نعم الحضارة والعيش اللائق الشريف ، وسيطرت عليه العادات والتقاليد والغيبيات ، كما تبدو فى الرواية مظاهر الحرب فى أفريقيا الشمالية من سنة ١٩٤٢ إلى ١٩٤٤ وما جرته على الجزائر من بؤس وعوز ونقص فى الرجال .

* * *

سأل أحد أبطال رواية مولود المامرى صاحبه : « هل أنت فى السجن؟ فأجابه أنا فى الجزائر . قال : إن كلا الأمرين سواء ! »

فإذا كانت الجزائر سجناً كبيراً تحده أسوار الاستعمار ، وتكبل نزلاءه الجزائريين قيود المستعمرين وإرهابهم ، فإن قرية « تاسكا » فى جبال البربر حجرة صغيرة ضمن السجن الكبير تبدو فيها الحقيقة الاستعمارية فى شكلها السافر ووضعها الأليم ، كما تبدو الحقيقة الإنسانية فى تناحر ناسها ونضالهم المادى وسوراتهم العاطفية فى جو من الملل والكآبة والقلق النفسانى والعوز والخضوع لوطأة العادات القبيلية والتقاليد والعصبيات ، فالقرية على صغرها وبعدها عن المدن تعج بالحيوية والمفاجئات وتناحر الشخصيات تؤثر فى القارئ وتحمله على الاستجابة العاطفية والمشاركة الوجدانية مع الحوادث والأشخاص .

وفى القرية كغيرها من القرى جيلان ، جيل قديم متمسك بالماضى متصف بالقناعة والرضى بالمقسوم ، مؤمن بالغيبيات والقضاء والقدر ، وجيل جديد متعلم على الطريقة الأوربية ، متمرد على الماضى والحاضر معاً ، يأبى على الجيل القديم تمسكه بالقديم ، ساخط على الأوضاع الحاضرة ، ينشد حالا مبهمة تختلف عن الحال الحاضرة ، ويتمثل الجديد فى شخصيات مكران ، ومناس ، ومدور ، ووالى ، ورافع يمثل كل واحد منهم اتجاهاً فى الحياة ويدورون جميعاً فى حلقة

مفرغة من الملل والفراغ الفكرى الناشئ عن انعدام الغاية والانعزال عن العالم الخارجى ، ولعل أكثرهم تمرداً وتناقضاً مع محيطه هو المعلم مدور المتخرج من دار المعلمين فى « بوذريعة » ، فهو يمثل الأفكار الجريئة التقدمية ، والفردية المتمردة على التقاليد المحترمة والأوضاع المقدسة .

وكان من الممكن أن تجرى حياة القرية فى جو مقفل بعيد عن الصخب وأصداء المدينة لولا تلك الهزة العنيفة التى اعترتها من جراء الحرب العالمية الثانية وتجنيد شبان القرية واشتداد وطأة الحرمان على أهل القرية وقد أفاد المؤلف من تجربته الذاتية فى الحرب عندما صحب الجيش الفرنسى محارباً فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا ، فإن مآسى الحرب قد أبقت فى ذهنه وقلبه صوراً انعكست على روايته فشغلت ناحية مؤثرة منها .

فحوادث رواية « التل المنسى » تجرى تحت تأثير حقيقتين :

ثابتة : وهى التقاليد الاجتماعية بما فيها من حسن ورديء ، طارئة متحركة : وهى الحرب العالمية الثانية وانعكاسها على أفريقيا الشمالية ويتخللهما حوادث ثانوية اقتضتها أجواء الرواية وحبكها الفنى .

إن قصة الحروب بالنسبة للجزائر قصة مروعة . وهى لاشك واجدة فى نفوس كتابها مكاناً مؤلماً . لأن الحروب التى شنتها فرنسا فى المستعمرات أو فى الأصقاع الأوربية تحمل أعباءها البشرية أبناء الجزائر . . فما أكثر الدماء التى سفكت من فرنسا ولأجل فرنسا . وما أكثر الضحايا الجزائريين الذين سقطوا دون غاية أو هدف . ولئن جنت فرنسا من حروبها وبخاصة الاستعمارية منها فوائد ومغانم وأسلاب فإن الجزائر خاصة وأفريقيا الشمالية عامة لم تجن سوى اليتم والحزن والدماء والدموع . على أن الجزائريين كانوا يتوهمون أن الحرب الأخيرة ستحمل إليهم تباشير الخلاص من حياتهم المعذبة وأنهم سيذوقون بعد علقم الاستعمار حلاوة الحرية ، وهم على معرفتهم بمساوئ الحرب وثمنها الباهظ فإنهم كانوا يتمنونها ويتلهفون إلى حدوثها فى كل قرية من قرى الجزائر كان « الناس لا يتحدثون إلا عن الحرب ، النساء عند العين وفى الطرقات ، والرجال فى الساحة والمقاهى والأسواق ، وكان الناس لأسباب متنوعة ودوافع لامنطقية غريبة ينتظرون بشىء من الزهو قدوم الحرب على الرغم من أنه لن يصيبهم منها إلا الخراب ، وأخيراً فإن الحرب حادث أساسى ا، لأن الأرواح تزهق فيها ، وهى أيضاً حادث

هام لأنها تصيب الناس جميعاً برشاشها فتكسر بذلك رتابة العيش ، كأن كل واحد قد مل الانتظار ومعرفة اليوم ما شاهده بالأمس ، فكانوا بذلك يزيدون عبء قبولهم الصريح أو الضمنى سرعة الاتجاه الجنونى نحو الحل السخيف ، والحق أن كل شيء كان يدفعهم نحو ذلك : دعاوة الصحف والإذاعة والإشاعات ذات المصدر المدروس بدقة وأخيراً . . . البؤس ، بل هذا الجبن وهذا العوز اللذان هبطا منذ سنين على قرية « تاسكا » وبقية القرى الجبلية ، فلعلهم واجدون فى الحرب دواء ناجعاً حتى أصبح الجميع يريدون الحرب أو على الأقل ينتظرونها بشيء من الإبهام » .

حتى إذا دنت الساعة لسوق هؤلاء الشبان إلى المجازر لكى « يسمنوا الغربان فى مكان ما من فرنسا وألمانيا » ارتفعت أمامك صيحات الألم المألوفة فقد كان « الأهالى يبكون أولادهم كما لو وصلت أنباء موتهم فى ساحات القتال ، وكان الليل يضخم ويردد دون انقطاع صدى صراخ النسوة اللاواتى سلبن أولادهن ، وكان الظلام يجعل هذه الصرخات أشد هولا ، وكانت المشاعل تنبع من خلال الأبواب فتضيء هذه المرة جماعات نلمح بينها خيالات النسوة يلطمن وجوههن أو يقلبن كفوفهن ، ولم يعد

أحد يفكر بالتقاليد واللياقات وسط هذا الحزن الواسع العام الذى هبط على قرية « تاسكا » .

وكان من الطبيعى أن تعانى القرية فى الحرب من صنوف الحرمان أضعاف ما تعانيه فى أيام السلم ؛ فقد ازدادت المجاعة حتى صار « الناس يخرجون إلى الطرقات وبأيديهم البنادق يرجونك بأدب أن تقتتسم معهم مؤونة الشعير التى تحملها إلى أولادك ، لأن أولادهم ليس لديهم شىء يأكلونه » ، وقيل إن طبيب المقاطعة فتح بطن شاب وجد ميتاً على قارعة الطريق فوجد حشيشاً غير مهضوم ! » واكتملت الصورة بزيادة أفواج المتسولين الذين كانوا « يتنقلون على الأبواب بأثوابهم الرثة وعظامهم الناتئة وأصواتهم الرخوة » . وحار الناس تجاه هذا البؤس المنتشر فقد « بلغ من كثرة الشحاذين ذوى العيون الفارغة الذين يجررون على الأبواب أرجلهم الدامية والمتشققة حتى ليشك الإنسان فى مقدرة الله عزوجل على إشباعهم وإلباسهم ! » زد على ذلك غلاء الأسعار وجشع المرابين وضآلة الأجور وتفشى البطالة واختفاء الحاجيات مما عاد بالحياة إلى عهود البدائية ، ولا تسل عن الردة النفسية فى نفوس القرويين فقد كانت « الحرب تثقل بوطأتها على الأشياء فتجعلها أكثر

اختصاراً وأكثر كآبة » حتى إذا انتهت الحرب وعاد من الجزائريين من كتبت له السلامة والعمر الطويل وجدوا أن هذه الحرب لم تحدث تغييراً كانوا ينتظرونه ؛ فلم يفدهم تحمسهم للحرب واكتواؤهم بنارها ؛ كما لم يفدهم تحمسهم لستالين وتسميته بأبى الشوارب ؛ فإن الحرب لم تقض على القلق المسلط على القرية ؛ ولم تخفف من الفقر والبؤس بل زادت فى وطأتهما ؛ فعاد الشبان من جديد إلى الهجرة طلباً للعيش « ففرغت الأسواق مرة أخرى من صخبهم القوى العنيف ، فأصبحت نظيفة باردة ، حتى إن الفتيات اللواتى لم يعد أحد يترصدهن على العين ينقلن عدداً محدوداً من جرار الماء فى حين أنهن فى الماضى كن يرحن ويجئن كأنهن كما يقول والى يفرغن جرارهم فى أوعية مثقوبة . . . ولما حرمت العين والدروب من ضحكات الفتيات وعبثهن أضحت كئيبة وهادئة كمحاكمات الشيوخ العقلية ! » .

وكان لابد لأهل القرية من أن يعتريهم التشاؤم وأن يلتمسوا لهذا البؤس سبباً غيبيا يتناسب وعقليتهم ونظرتهم إلى الحياة ، فقد شعروا أن القرية « تعانى مرضاً غريباً لا يستطاع الوصول إليه ، فهو فى كل مكان ولا نجده فى مكان . . . وقد جربنا عبثاً جميع الأدوية ، ثم لم يعرف أحد منا سبب هذا

الداء ، هل أغضبنا وليا من أولياء الله ؟ أم هل تجاوز الشبان الحدود الأخلاقية ، أم هل فكر الشيوخ فى مجالسهم تفكيراً خاطئاً أو اتخذوا تدابير ظالمة ؟ ففى سنتين متواليتين جفت الينابيع فصار علينا أن ننحدر إلى بطن الوادى لجلب الماء . وأحرق البرد زرعنا ، وقد أطفأنا فى الصيف ذاته أربع حرائق فى غابات « أفران » لم يفصل بين حريق وآخر سوى أيام ، ولم يعد الأولاد يتشاجرون بل يجلسون فى حلقات فى الساحة كالشيوخ يتكلمون عن السيارات وأسعار الغلال .

وصارت نساء القرية يلدن الأولاد كالسابق ولكن أكثر المواليد من الإناث ، وكان يموت من المواليد عدد كبير وأكثر الوفيات من الذكور . . . إن ريح النحس قد هبت على « تاسكا » . . . ولكن الأدهى من كل ذلك هى تلك الكآبة التى ترشح من الجدران ، وهذه الخمر البطيئة التى تهبط المنحدر فى « تاكورافت » ، وهذه الثيران الناعسة ، وتلك النسوة اللواتى يحملن الأثقال ويؤدين أعمالهن كسخرة مبتذلة » .

وكان من الطبيعى أن يكون للتقاليد والعادات والأوهام والخرافات مكان فى حياة القوم ، وأثر فى تصرفاتهم وسلوكهم ، وأكثرها من رواسب عصور الانحطاط والتى نجد مثيلها فى

الشرق العربى الإسلامى مع بعض الفوارق المحلية التى تميزت بها إفريقيا الشمالية كشيوع الطرق الصوفية وزيارة الأولياء لحل المشاكل اليومية المستعصية وارتياد الزوايا والتكايا ؛ لعرض الظلامات والشكاوى فإن الأولياء الذين هم وسطاء بين الله والناس يملكون نفعا وضرا ، ويملكون إنزال المصائب ودفعها عن الناس ولذا وجب الحرص على رضاهم والتضرع إليهم عند الشدائد ألم يقل أحد أبطال الرواية بأن البلاء الذى حل بالقرية سببه أن « سيدى مالك الولى الصالح الذى سهر منذ حوالى أربعة قرون على قريتنا وقبيلتنا قد أهملنا ؛ حتى عم الذل والملل من العيش ، وفى الحق فإننا عملنا كل شىء لكى تحل اللعنة علينا ، ألم يقترح دلال الخيول عندنا يوماً على مجلس الشيوخ ألا تذبح الخراف والثيران كما هى العادة عند قدوم عيد الأضحى أو عند مقدم الربيع إذ قال بعد أن تساءل عن فائدتها : « إن هذه الضحايا تكلفنا كثيراً من الأموال » ثم إن هناك طالباً من الأزهر قد صرح بأن التضحية مخالفة للدين ، غفر الله له هذا الكفر ، فإنه صغير السن . » .

ولعل النساء وبصورة خاصة العجائز منهن أكثر الناس إيماناً بالشعوذات والسحر والتنجيم وهذا لا يعنى بأن الرجال

بمنجى عن هذا الإيمان والتصديق فإن « موكران » الشاب المثقف لم ينج من سلطان المحيط فقد أطلق امرأته التى يحبها نزولا عند إرادة أبيه لأنها لم تلد له ولداً ؛ وكانت قبل الطلاق صنعت ما تصنعه كل امرأة مثلها من الاستجارة بالأولياء ودخول حلقات الذكر ، وحمل سلة القش والطواف على القرى للشحاذة وغير ذلك من الوسائل . وقد كانت « عزى » زوج مكران تعتقد أن « العقم عند النساء عقاب على ذنوبهن » وكان هذا الاعتقاد « يدخل فى روع المرأة كالمثقب » . ولما وصلت عزّى إلى مقام الولى ، نزعت نعليها وتقدمت نحو الضريح وقبلت الراية قائلة : « يا عبد الرحمن ! ثم مدت يديها مستعطفة مرة أخرى : يا عبد الرحمن ! لقد تركتنى وحدى مجردة أمام مشيئة الله ! انجدنى . . اعطنى ولداً وسأطلق عليه اسمك » .

وكانت العجائز الجالسات فى حلقة حول الضريح واللواتى ينتسبن إلى الطريقة يرددن وبصوت واحد :

آمين ! بشفاعتك يا عبد الرحمن .

إن أمى هى من أتباعك ، وهى تدعوك ليلا ونهاراً وتنشد كل يوم مدحك يا عبد الرحمن النسّاء .

وسجدت عزى طويلا ، وظلت برهة ساجدة ثم ارتمت على الضريح فقبلته قائلة : انقذ بيتى من الدمار ، وثدني من العقم وسأنحر لك ثوراً يا عبد الرحمن الرحيم !

فقالت لها العجوز : اطرقى برأسك يا بنيتى أمام مشيئة الله كيلا لا يترك الله وعبد الرحمن ثديك جافاً كينابيع الصيف ، فأطرقت عزى رأسها فوضعت العجوز يدها عليه مرددة ثلاث مرات : يا عبد الرحمن ! بارك هذين الزوجين حتى لا يصبح أحدهما عبئاً على الآخر .

ثم قامت العجوز تصلى ليستجيب عبد الرحمن دعاء الصبية وكان رفيقاتها يرددن بصورة آلية عند نهاية كل دعاء . آمين وكنت تقرأ فى عيون الحاضرات الدهشة لجمال هذه المرأة ، ولم يفهمن كيف أن عاهة ظالمة تصنع هذا المقدار من الألم فى جسم تام الخلقة ! » .

وإذا أردت أن تحضر إحدى حلقات الذكر التى أبدع المؤلف فى تصويرها فاسمع ما يقول : « ثم نهض الجميع لكى يفسحوا المجال فى الوسط ، ثم تقدمت امرأة عجوز من اللواتى جئن للقيام بالحضرة تقودهن واحدة واحدة إلى منتصف القاعة

فيتكدس فى كتلة كبيرة حية ، حتى لا يكاد يتميز الناظر سوى قطع القماش لأن الجميع أرخين رؤوسهن .

وأخذت الموسيقى تصدح . موسيقى وحشية . رتيبة كضربات المطارق عنيفة تارة وحلوة ناعمة كالقبلة تارة أخرى . وفى كل زاوية رجال ونساء تهزهم القشعريرة . وكان ينقون كالضفادع من كل مكان ، ويحركون الأكتاف بصورة تشنجية على نغمات الكمان ، حتى إذا سمعت سحبة أخرى من قوس الكمان رمى عدة رجال برانسهم وصرخوا كالوحوش الضارية ، وقفزوا وسط القاعة يرقصون ممسكين أيديهم ، وكنت تسمع أثناء الرقص قضقضة عظامهم . فإن النساء والرجال والشبان والشيوخ الذين شد الهذيان من قواهم قد أخذوا يرقصون بعنف مشكلين حلقة حول كتلة النساء العقيمات دائرة هذيانية . ودامت الحضرة ساعة ، وكانت عزى تسمع سقوط كتل أجسام الدراويش التى أنهكها التعب فيحملهم إخوانهم إلى زاوية المكان بعد أن يكونوا قد غطوا بالبرانس أجسادهم المتصببة عرقاً ، وبعد ساعة لم يبق منهم سوى اثنين ، فنادى صاحب العمامة الزرقاء وأصحابه كأنه آت من الأعماق وأمرهم بإخماد الرجلين الهائجين ، ثم علا أنين الكمان كأنها دقات بلورية

متباعدة مؤذنة بنهاية الحضرة وحـــل الصمت العميق مكان الضجيج ولم يعد يسمع من بعيد سوى أنين الدراويش المنبعث من مختلف الزوايا » .

وهناك لوحات أجيد صنعها تجمع بين روعة الفن التصويرى والوثيقة الاجتماعية مما يجعل من « التل المنسى » رواية جبال القبائل الجزائرية التى يجهل القارئ العربى عنها أشياء عن عاداتها ونمط عيشها وأحوال أهلها .

openkandl.com